العولمة والأدب

إشكاليات .. وآفاق

بقلم: أحمد محمد حسانين*
مصر

النظام العالمي الجديد.. العولمة الكوكبية .. حوار الثقافات.. التناص والبيئية.. ما بعد الحداثة.. تلك هي مفردات الخطاب الإعلامي اليومي الجديد، المتردد على الساحات الإقليمية والدولية لعالم القرن الحادي والعشرين، والمعبرة في النهاية عن عالم بشري تحاول الحضارة الغربية «المتفوقة» ماديا وتكنولوجيا - إعادة صياغته وتشكيله، وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية - زعيمة العالم الغربي - دورا جوهريا في تنظير قواعده، ووضع آلياته.. وتطير لنا وكالات الأنباء عبر وسائل الإعلام سواء من عواصم الغرب أم مبنى الأمم المتحدة!! -فاعليات هذا التنظير وتلك الآليات. والمراقب لما يصدر عن هذه المحاولات المصحوبة بالدعائية المبهرة وذلك النشاط التسويقي المحموم للعولمة، وما يصاحبه من صخب ولغط وأحيانا عنف وصدام (أحداث سياتل ودافوس الأخيرة) - المراقب لذلك كله يجد نفسه مضطرا لمحاولة فهم ما تنطوي عليه العولمة من حقائق، وما تحويه من مضامين، وما تفرزه من إشكاليات، وما تفتحه من آفاق خاصة فيما يتعلق بعلائقها الأدبية والثقافية بشكل عام.

* كاتب وناقد مصري، موجه بالتعليم.

أسس وأبعاد العولمة:

تستند العولمة اليوم إلى ثلاثة أسس، عدها جمع من خبراء الشرق والغرب، تمثل شروط الانتماء إلى عالم اليوم، وهي:

١ - الاندماج في نظام اقتصادي عالمي يتبنى سياسات تحرير الأسواق والاقتصاديات عن طريق الالتزام بقواعد منظمة التجارة العالمية «الجات سابقا» وهذا النظام الاقتصادي تمثل آلياته أسواق مالية كوكبية وشركات متعددة الجنسيات.

٢ - اعتماد إيديولوجيات ليبرالية جديدة، تؤكدها، كما تعلن أدبيات العولمة على الديموقراطية والتعددية للجميع وتوسيع مفاهيم حقوق الإنسان والبيئة من حوله.

٣- يقوم النظام الإعلامي بوسائله وتقنياته فائقة التكنولوجيا بدور مهم وأساسي في تكوين وبلورة المنظومة الشاملة للعولمة باستغلال مكتسبات الانفجار المعرفي وشبكة الاتصالات العالمية بالإضافة إلى تحريك رؤوس الأموال والسلع عبر قارات العالم.

تلك هي الأسس الثلاثة التي تعكس التصورات الإجرائية «لصناع العولمة» (globalization) وقد يعرفها بعض الكتاب بمصطلح يشير إلى أسلوب وفلسفة العمل فيقال عنها «التنميط» أو التوحيد أو uniformaliezation أو unification.. وحين نقول: إن العولمة تعتمد ثلاثة أسس وآليات إجرائية، ذلك لأنها لم تعد مجرد نظرية أو مفهوم، وإنما غدت واقعا إجرائيا يتدعم يوما بعد يوم، فنحن الآن نعيش في عالم «يتعولم» أو «يتنمط»!!.. وبعض المفكرين ينظر إلى العولمة على أنها ثمرة لتطوير أساليب الإنتاج والاتصال الحديثة التي جعلت من العالم قرية صغيرة وتلبية معطيات مرحلة ما بعد الصناعة أو ما يعبر عنه فكريا «ما بعد الحداثة».. أو ينظر إليها بعضهم على أنها ثمرة لانتصار الفكر الليبرالي الغربي على سائر الإيديولوجيات والنظم، وبالتالي لا بد من تعميم هذا الفكر.

ويبدو أن الغرب مصمم وبشدة على استغلال الظرف التاريخي الناتج عن انهيار المعسكر الشيوعي والاشتراكي وبروز دور الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة، ويستغل ذلك في التسويق المادي للعولمة، وفكريا يقوم الغرب بعملية إزاحة للثقافات والإيديولوجيات الأخرى، والتي يراها معوقة لمسيرة العولمة ويصفها بأنها «قديمة» أو «شمولية» وهو ما عبر عنه «صموئيل هنتنجتون» «بصراع الحضارات» أو «صدام الحضارات» ويحاول مسوقو العولمة أن يكسبوا رؤية هنتنجتون المباشرة الصريحة طابعا دبلوماسيا مراوغا يتلاءم مع شعارات العولمة، فرأينا واقعا «صدام الحضارات» يتحول فيه قاموس العولمة إلى «حوار الحضارات» أو «تبادل الثقافات».

يتضح مما سبق أن العولمة إجراء عملي يسير بفعل التطوير للسياق التاريخي الذي نعيشه إلا أن الإدارة السياسية تلعب فيها دورا رئيسيا ذا مجال شديد الاتساع، يمتد من الجيو-سياسية العالمية والإقليمية إلى الثقافات عبر وسائط تشمل أرض الكوكب وسماءه، و «اتفاقية الجات أو منظمة التجارة العالمية» تظل إحدى الآليات الرئيسية التي تستخدمها العولمة مع آليات أخرى كحلف الناتو الجديد ومجلس الأمن الدولي وصندوق النقد الدولي والشركات المتعددة الجنسيات ووسائل الاتصال والإعلام وحقوق الأبحاث في الإلكترونيات، وشبكة المعلومات «الإنترنت».. ومن المهم أن نعرف أن منظمة التجارة العالمية تتضمن لوائح تنظيمية وقانونية عن حقوق الملكيات الفكرية ومعظمها غربي.

بعض إشكاليات العولمة

على مستوى العالم الثالث، بل والغرب نفسه وخاصة فرنسا تتم فعاليات كثيرة، ونشاطات ثقافية وفكرية متعددة تعكس إحساسها وإدراكها لأمواج العولمة العاتية وخطورة سياستها الإعلامية، وتنادي هذه الفعاليات بوضع تصورات وقائية، وتهيئة المجتمعات للتعامل مع واقع جديد لا محالة من تعميمه، ومحاولة تجنب أكبر قدر ممكن من إشكالياته خاصة على مستوى البعدين الإعلامي والثقافي، وتطوير المفاهيم والأساليب للتفاعل مع الإيجابيات والآفاق الجديدة التي تفتحها العولمة لهذه المجتمعات المتطلعة إلى الرخاء والديمقراطية، ونستطيع أن نحدد أهم إشكاليات العولمة على مجتمعاتنا في بعدها الثقافي والإعلامي في تبني العولمة للثقافات الآتية:

أ- ثقافة الاستهلاك المحموم.

ب- ثقافة الجنس.

جـ- ثقافة السلام.

وهذه الجوانب تتعرض لانتقادات حادة وخاصة فيما يتعلق بأثرها في الأنماط السلوكية والجوانب الأسرية والدينية والأخلاقية، وأثر ذلك كله في عمليات التنمية ذات الطابع الذي يتلاءم وظروف العالم الثالث، ومن هنا فتعبير «التبعية الثقافية» حين تطلقه أصوات كثيرة في العالم الثالث إنما يعكس الإحساس بالتأثيرات السلبية في الهوية الثقافية والحضارية، بل إن التعبير أحيانا يأخذ طابعا أكثر حدة حين يعبر عنه «بالاستلاب» أو «العنف الثقافي». ويحضرني في مقام تناول الأنماط الثقافية للعولمة مقال تحت عنوان «الوزير.. والكتاب.. وثقافة العولمة» للأستاذ مرسي عطا الله رئيس تحرير جريدة «الأهرام المسائي» يقول فيه: «إن أخطر تحديات العولمة بالنسبة لنا ولكل الشعوب صاحبة الحضارة والتاريخ - هو التحديات الثقافية - التي تتجاوز في مخاطرها تحديات التقنية الحديثة، وأطماع الكبار في ثمار السوق المفتوحة وحرية التجارة. ومن المهم أن نتبين بوضوح أن العولمة ولو أنها نظام اقتصادي في المقام الأول.. سياسي اجتماعي في المقام الثاني.. إلا أنها بلا شك تحمل ثقافة جديدة.. فالطوفان المعلوماتي والرموز التي تشيعها وتنشرها العولمة بكل وسائل الاتصال الحديثة فائقة القدرة، ووسائل الإعلام فائقة السيطرة (سينما - إذاعة - تلفزيون) جعلت بعض المفكرين يطلق عليها ثقافة عالم (ماك) نسبة إلى سلسلة ماكدونالدز (الغذائية الشهيرة)، وبعضهم الآخر ينسبها صراحة إلى الثقافة الأمريكية، ولكن تبقى الحقيقة المجردة أن هناك أرضية مشتركة واضحة المعالم لهذه الثقافة الجديدة، ويرى الدكتور (بهاء الدين) - والكلام لمرسي عطا الله - أنها ثقافة تنتج الاستهلاك، وهمها الرئيسي إيجاد أسواق جديدة وإطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان لها، وما زالت أهداف التجمع الرأسمالي هو إقامة وتطوير حالة عدم الرضا المستمرة عن المنتجات الموجودة حاليا حتى تتحقق حالة من الطلب المستمر والجديد على المنتجات الجديدة أو نماذج مستحدثة..، إن هناك نظرية اقتصادية لها مؤيدون كثيرون ترى أن زيادة الاستهلاك محرك قوي لزيادة الإنتاج وتنشيط الاقتصاد ويطلق عليها اليابانيون «شيندوجو»: تكالب استهلاكي بصرف النظر عن إشباع الحاجات، ويتمثل في عشرات من الأجهزة والسلع والآلات الموجودة في كل منزل وتكاد - لا تستعمل إطلاقا.. إنها ثقافة مادية بحتة لا مجال فيها لروحانية أو عواطف، ولا مساحة فيها للمشاعر الإنسانية، ولا للعلاقات الاجتماعية القائمة على التعاطف والتكافل والاهتمام بالآخرين..، بل إنها ثقافة تروج لتمجيد الربح وسحق المنافسين، وتؤله المال، وتلغي كل ما عدا ذلك من قيم..، إنها ثقافة تشكل عالما يجعل من الشح والبخل فضيلة.. والأهم من ذلك أنها تستهين بكثير من القيم المجتمعية.. إنها لا تقيم وزنا لهوية أو انتماء.. ولا تهتم بحقوق المواطنين ولا بفرص العمل ولا باعتبارات البيئة، وأحيانا تعتبر هذه المفاهيم عقبات يجب إزاحتها![٣].

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «شعار العولمة من السهل طرحه واستثماره إذ يعني أننا نعيش جميعا في قرية صغيرة تحكمها مجموعة من القيم الواحدة، وجوهر ذلك أنه ينبغي أن نتاجر سويا، ونتمتع سويا لأن جوهر المنظومة العلمانية هو ما أسميه الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني، ونجد في إعلانات التلفزيون بلورة لهذا، فإعلانات التلفزيون هي محاولة لبيع السلعة من خلال

الجنس بمعنى التوجه إلى الإنسان الاقتصادي من خلال الإنسان الجسماني، ولذلك نجد أنهم يبيعون لنا المبيدات الحشرية من خلال شقراوات يقفزن ويتراقصن دون أن يكون لذلك علاقة بالمبيد الحشري، ولكن أدرك العاملون في قطاع الإعلانات أن هذه الخلطة هي التي لا يمكن هزيمتها لأنها تتواءم وتعبر عن هذا النظام العالمي الجديد [٤].

إن مثالي مرسي عطا الله والدكتور عبدالوهاب المسيري يجسدان بصورة واضحة تلك الفلسفة الإعلامية والثقافية للعولمة التي حددنا ركائزها في: ثقافة الاستهلاك، وثقافة الجنس، وثقافة السلام.. السلام الذي يعد المسرح للتجارة، ويهيئ الأجواء للربح دون مشاكل أو معوقات.

العولمة والمثقفون والأدب:

يكاد يجمع النقاد ودارسو الأدب، على اختلاف مذاهبهم الفكرية والأدبية - أن الأدب في مصر والعالم العربي عامة.. يعيش منذ فترة طويلة مضت وحتى الآن - مظاهر أزمة حادة، وهذه الأزمة تمتد لتشمل كافة الأنشطة- الثقافية في السينما والمسرح فضلا عن قصور الثقافة، ونوادي الأدب، وجمعيات الأدباء، وإذا كانت هذه الأزمة تعود إلى أسباب كثيرة ومتشابكة أهمها الأزمة الاقتصادية فإنا نحاول رصد مايتصل منها بالأدب نفسه ومنها:

- استفحال ظاهرة الشللية الثقافية.
- معوقات نشر الإنتاج الأدبي وخاصة في الأقاليم.
- الحاجة إلى إمكانات كبيرة وجهود متضافرة لدفع عملية الرواج الثقافي والإنتاج السينمائي والمزيد من دور العرض.
- مركزية القاهرة وتركيز معظم الفاعليات والأنشطة الثقافية بها.
- عدم تفعيل قصور الثقافة بحيث تؤدي أدوارها التي أنشئت من أجلها.

د. عبدالوهاب المسيري

ورغم مايبذل من جهود للتخفيف من حدة هذه الأغراض، سواء في وزارة الثقافة أم في الهيئة العامة للكتاب، أم في وزارة الإعلام إلا أن الأزمة تبدو لي -وأنا متخصص في الأدب ومعني بدراسته- أعمق وأبعد من تلك الظواهر، وأعني بها: أنها أزمة فكر وهوية ثقافية في المقام الأول.. إنها أزمة أدب يتلمس طريقه وسط ركام من النظريات والاتجاهات، وثقافة تقف على مفترق الطرق تبحث عن هوية، وتتجاذبها عوامل متناقضة بين الأصالة والتجديد، وتعاني مشكلة التوفيق بين طرفي المعادلة هاتين، وإذا كان قارب الثقافة يجدف الآن بمجاديف معاصرة، وأصبح من المؤكد أنه لا عودة للمقولات الكلاسيكية إلا أن ما نواجهه من إنتاج أدبي وفني، والذي يتراوح الكثير منه بين السطحية والاستهلاكية من جهة، والتغريب المأزوم من جهة أخرى، ربما يفسر ذلك لنا عمق الأزمة التي أتحدث عنها.

يقول الناقد الدكتور عبدالعزيز حمودة متناولا بعض جوانب هذه الأزمة، وذلك بمناسبة حصوله على جائزة «محمد حسن فقي» في نقد الشعر عن كتابه «المرايا المحدبة»:» لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن الكتاب سوف يكون شهادة على الحالة النقدية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين.

كنت أدرك جيدا أننا نقترب من نهاية قرن من الانفتاح على ثقافة الآخر بدرجات متفاوتة، وأننا نحتاج إلى تقييم لموقفنا الثقافي قبل الدخول في الألفية الثالثة، لكنني لم أحلم أبدا بالقيام بتلك المهمة، ولم أدَّع شرف الاضطلاع بها كما أنني لم أنطلق من سوء نية لتقويض المعبد فوق رؤوس حراس الحداثة العربية، وجميعهم أساتذة كبار أعطوا الفكر العربي دون قيود أو حدود.. وسوء النية هو ما دفع به البعض للأسف في مواجهة تأثير الكتاب، وكأن المفكر في عصرنا الحديث مطالب بتقديم شهادة حسن نية قبل أن

يمارس حقه الطبيعي والمطلق في الاختلاف.. اختلفت على وجه التحديد مع مقولة أساسية تنادي بالربط بين التحديث والحداثة الغربية مستغلة في ذلك حماسة الإنسان، والمثقف العربي للحاق بركب الحضارة الغربية، ثم مستخدمة شعارات «الاستنارة» و «التنوير» ذريعة لاتهام كل من ينادي بمراجعة موقفنا الفكري بين التأثير والنقل. بالرجعية والانعزالية والانغلاق.. وأعترف هنا بأن ذلك الاتهام ظل سلاحا مرفوعا في وجه الجميع طوال العقدين الأخيرين - مما ولد لدى المثقف العربي رهبة واضحة في ممارسة حقه في الاختلاف.. فمن هو المفكر الذي يغامر في موقف الدفاع عن النفس ضد تهم الرجعية والانعزالية والجهل!؟.

.. لكن ما حدث أن كتاب «المرايا المحدبة» جاء دون قصد أو تخطيط - شهادة على الحالة النقدية العربية خاصة، والحالة الثقافية عامة، بعد أن تحولت الدعوة لنهضة فكرية عربية رفع شعارها المفكرون العرب في السنوات المبكرة من القرن العشرين من التأثر الصحي بثقافة الآخر، وفكر عن طريق الانتقاء الذكي لما يتفق مع معطيات الثقافة العربية، إلى الارتماء الكامل في أحضان الحداثة الغربية دون إدراك حقيقي للاختلافات الجوهرية بين واقع الثقافتين.. وهكذا أضعنا فرصة ذهبية للانتقال من مرحلة التأثر والانتقاء الصحية إلى مرحلة تطوير فكر نقدي عربي يعكس خصوصيتنا الثقافية!، وليس صحيحا ما يردده بعض دعاة الحداثة في العالم الغربي من أننا تحولنا من استهلاك الحداثة الغربية في الثمانينات إلى إنتاج حداثة عربية في التسعينات.. وانتهى القرن الماضي ونحن أبعد عن جذورنا الثقافية مما كنا عليه في بدايته.. وليس صحيحا أيضا أن الحداثة العربية تقوم على الأصالة والمعاصرة.. إذ إن واقع الحال كما كتب أحد نقادنا الكبار - يؤكد أن العلاقة بين الأصالة والمعاصرة عند الحداثيين لا تتعدى واو العطف بين المفردتين.. بل وصل الأمر بالبعض في تطبيقهم الخاطئ لبعض شطحات ما بعد الحداثة - إلى الدعوة إلى خرق التراث الشعري لبعض عمالقة الشعر العربي، وهي دعوة تعطي مصداقية لرأي مناهضي مشاريع ما بعد الحداثة الغربية داخل الواقع الثقافي الغربي نفسه، وذلك حين شبهوا التفكيكية بثور هائج انطلق داخل حانوت للعاديات يحطم كل شيء ويدمر كل ماهو تراثي في فوضى كاملة!!!... ليس معنى هذا بأي حال - أن فكر الحداثة الغربية شر كله» فمثل هذا القول يعني التعصب الفكري القاصر، والدعوة إلى العزلة في عصر أصبحت فيه تلك العزلة ترفا فكريا مستحيلا، ولكنه يعني في نفس الوقت أن فكر الحداثة الغربية ليس خيرا كله».

د. عبدالعزيز حمودة

تلك شهادة ناقد أدبي كبير تعرض لبعض أسباب وتداعيات أزمة النقد والأدب العربي الذي يعاني كما أشرت في بداية حديثي عن الأدب والعولمة - أزمة الاغتراب.. ونلخص شهادة الدكتور حمودة محاولين تفسيرها في النقاط الآتية:

١ - توقف محاولات إيجاد نقد عربي يجمع بين الأصالة والمعاصرة نتيجة تعالي أصوات تطالب بالحداثة. وكانت تعني وقتئذ تطبيق ممارسات «البنيوية» التي كانت تعني دراسة مدخلات النص الأدبي نفسه وموت المؤلف».

٢ - إن محاولة تأصيل نقد عربي معاصر أو بمعنى أوضح تأكيد «هوية للفكر والنقد العربي» جوبهت بحملات «مكارثية» تدين أصحابها بالتخلف والجمود والانغلاق تحت شعارات «الاستنارة» و «التنوير» والتي كانت تمتد أحيانا إلى اتهامات «بالجهالة» و «الإرهاب».

٣ - إن الأدب العربي الذي كان في حالة جدلية مرهقة مع حداثة «البنيوية» فوجئ وهو في خضم هذه العملية بموجات ما بعد الحداثة الداهمة تكاد تزيل ما تبقى له من قوة.

٤ - إن تيار ما بعد الحداثة «التفكيكية» هو المتحدث الرسمي للفكر والأدب عن «العولمة» وهو يعني «موت النص نفسه» بعد موت المؤلف «ويعني مهاجمة كل الأنساق والأطر الفكرية القديمة والحديثة أيضا، وعدم الاعتراف بأية

مقولات أو حقائق تتصل بالإنسان أو الطبيعة أو النظم الاجتماعية، أو حتى العمل الأدبي نفسه، إنما الاعتراف برؤية يمارسها المتلقي فيما يسمى» بإعادة كتابة النص. وهي مقولة ينبه كثير من النقاد إلى التوقف عندها ومناقشتها قبل الاتفاق معها، إذ إنها تقود إلى إحداث حالة تفكيكية من فوضى الدلالة بعد الفوضى الأولى التي ترتبت عن البنيوية حين أماتت المؤلف.

٥ - إن تفكيكية «ما بعد الحداثة» والتي يبدو انبهار بعض نقادنا وأدبائنا بها انبهارا شديدا - ما هي إلا ترديد لمقولات العولمة التي يسوقها بعض سماسرتهم الغربيين في العالم، وخاصة عالمنا الثالث، وكان آخرهم الفيلسوف الفرنسي «جاك دريدا» الذي كان ضيفا على مصر لمدة ثلاثة أيام، وحاضر في معرض القاهرة الدولي للكتاب والمجلس الأعلى للثقافة.

د . جابر عصفور

وفي الندوات التي عقدت بمعرض الكتاب قال الدكتور عبد الوهاب المسيري ناقدا لفكر العولمة:«إن معظم الأدبيات التي تحدثت عن العولمة لم تتحدث عن صورة الإنسان التي توجد خلف الأفكار التي يرددها منظرو العولمة..إن الإنسان الذي يتم تخليقه من خلال العولمة والماكدونياليزم إنسان حركي ارتباطه بأسرته ومحيطه ليس قويا، وهو إنسان اقتصادي دوافعه اقتصادية وهو ما لا يفصح عنه دعاة العولمة»[٦].

ويقول الدكتور جابر عصفور معبرا عن أزمة الفكر والنقد العربي: «يبدو حالنا كما لو كنا نغرق في التخلف والتراجع في الوقت الذي يمعن فيه العالم الأول في التقدم والتطور والتحول ويفرض علينا إيقاعه المتسارع الذي نستجيب إليه استجابة (السلب والتقليد) من ناحية، واستجابة (الرعب والخوف) من ناحية أخرى.. وليس هناك فارق جذري كيفي بين الاستجابتين اللتين نتمزق بينهما في إيقاع لاهث من التغيير»[٧].. وأقول تعليقا على د. جابر عصفور: إن الفارق الجذري يتمثل في تشجيع ودفع محاولات إيجاد نقد وفكر عربي أصيل ومعاصر ينبع من معطياتنا، ويستجيب لطموحاتنا، وهي الدعوة التي أعلنها الدكتور حمودة في «المرايا المحدبة» وأضيف إلى جهود الدكتور حمودة جهود الأستاذ الدكتور مصطفى ناصف «نحو نظرية ثانية: النقد العربي» و «الدكتور لطفي عبدالبديع، والراحل د. شكري عياد وغيرهم ممن يحاولون جاهدين إيجاد خصوصية للنقد العربي.

انعكاسات العولمة على بعض ظواهرنا وقضايانا الأدبية:

أحاول هنا أن أرصد بعض القضايا والظواهر الأدبية التي ارتبطت بتواجد العولمة وتأثيراتها المطروحة في واقعنا الثقافي، ولعل ما يأتي في مقدمة وأبرز هذه الظواهر:

أ- ظاهرة «جائزة نوبل» والدوافع التي تقف وراءها وخلف معاييرها والجدال الذي تركته حول مناسبة حصول كاتبنا الكبير نجيب محفوظ عليها، وبالذات عن «أولاد حارتنا» والتي رأتها اللجنة أعظم إبداعات محفوظ، رغم تميز أعمال أخرى كثيرة له هي ربما أكثر تميزا من أولاد حارتنا الفني بمراحل عدة.

ب - تلك الاحتفالية المصحوبة بضجة غير مقدسة من دوائر الفكر والسياسة والنقد الغربي وخاصة في بريطانيا وأمريكا حول كتاب «آيات شيطانية» للكاتب الهندي سلمان رشدي الذي لاقى تعاطفا وحماية غربية بغير حدود، لا لشيء إلا أن كتابه يتضمن افتراءات بالغة الوقاحة لأمهات المؤمنين!!

والتساؤل: هل لو كانت آيات سلمان الشيطانية تتناول رموزا صهيونية أو يهودية أو غربية.. هل كانت ستنفجر من أجله مظاهرات التأييد الهستيرية في شوارع لندن وباريس، ويعلن البرلمان الأوربي في «سترسبورج» تأييده له، وتتولى «دار بنجوين» أكبر دار نشر في بريطانيا بتعهد كتابه بالرعاية!! أم أنه سيحاصر ويطلق عليه رصاص الإرهاب الفكري من كل صوب مثلما حدث مع الفيلسوف الفرنسي المسلم «روجيه جارودي» الذي لا يتبنى كثيرا من رؤى الغرب وأساليبه، وما يقال عن

سلمان رشدي يقال أيضا عن تبني الغرب للكاتبة البنجلاديشية «نسرين تسليمة» والكاتب المصري «نصر أبو زيد» ويشبه هذا مع الفارق في حجم المشكلة وتفاوت نبرة التهجم ما أثير من ضجة حول «وليمة أعشاب البحر» للكاتب السوري حيدر حيدر، وما خلفته في مصر من صدى سلبي يعبر في جانب كبير منه إلى افتقار أجواء الفكر والثقافة والأدب للظواهر الصحية.

جـ- تنامي ظاهرة الدعوة إلى أدب الجنس «والكتابة بالجسد» وهو اتجاه بغض النظر عن قيمته الفنية وجدواه الفكرية يعبر أساسا عن ظاهرة اجتماعية غربية أخذت شكل اتجاهات وتيارات فرضت نفسها على هذه المجتمعات، وهي اتجاهات وتيارات الشذوذ الجنسي والأدب الخنثوي، والتي يحاول الغرب طرحها بإلحاح شديد، ليس على مستوى الفكر والأدب، وإنما على مستوى المنابر السياسية والقوانين الاجتماعية والتشريعات في دول العالم الثالث وخاصة عالمنا الإسلامي.

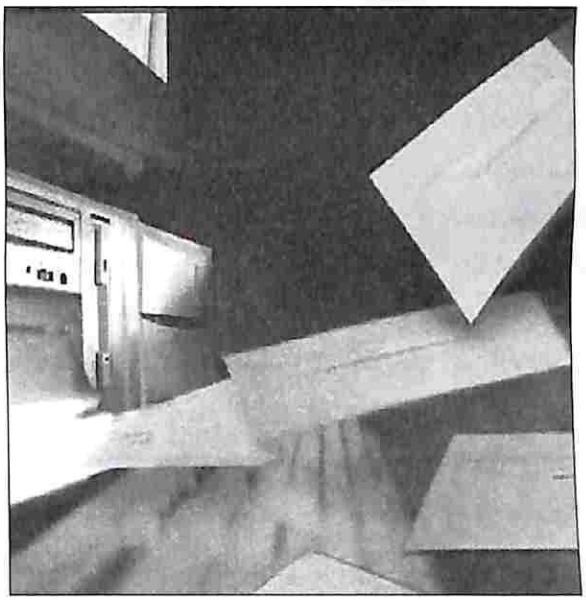

د - الدعوة إلى تبني الأدب العولمي، أدب «حضارة الصورة» وهو الأدب المنتج والمنقول عبر الوسائط الإعلامية والتقنيات التكنولوجية الحديثة، والتي تعكس صورة إنسان عالمي ذي بعد واحد، وهو البعد المتغير دائما، المجاوز لمجتمعه وهويته، الباحث عن الموضة والجديد كل لحظة.. أي الإنسان المطلوب بمواصفات النظام العالمي الجديد والشركات المتعددة الجنسيات مع وضع هذه الصورة في إطار مراوغ،مخادع من الثقافة والفكر.

تلك بعض الظواهر والقضايا الأدبية المفروضة علينا بمنطق العولمة، والتي أردت التأكيد عليها وأخذها في الاعتبار عند محاولة صياغة فكر ونقد أدبي عربي شامل يستجيب -كما أسلفت- لظروفنا ويعبر عن طموحاتنا.

آفاق العولمة:

رغم ما ذكرناه من إشكاليات وظواهر سلبية للعولمة من وجهة نظر مفكري ومثقفي العالم الثالث وبخاصة تجاه مفاهيم التنميط والإلهاء الحسي، ونزعة الاستهلاك والإزاحة والاستلاب الثقافي، رغم ذلك أرى أنها ظواهر سلبية لا بد أن تصاحب مراحل التغير الكبرى وطرح التجارب والأطروحات الكبيرة والتي تحتمل الصواب والخطأ. ونظرا لأن العولمة بأبعادها ما زالت محل انتقاد ونقاش وتقييم وإعداد سياسات للتعامل معها، وحوار قائم في كل من الشرق والغرب، وبين الشرق والغرب، فإنني أتوقع أن يسفر ذلك كله عن إجراءات أكثر إيجابية وإنسانية وعدلا، وخاصة مع تنامي مفاهيم التعددية واحترام الآخر وإعلاء منطق الحوار، وأولويات التفاهم. ومن هنا فالآفاق التي تتيحها العولمة للأدب والثقافة بصورة عامة أراها مشجعة ومحفزة للأدب في أن يستغلها ويتقدم فارضا صوته الإنساني كضرورة تتصدر منظومة العولمة، وضرورة تؤكد صوت الإنسان، وحضور هذا الجانب منه بآماله وآلامه وأشواقه ضرورة تكبح ما في الأبعاد السياسية والاقتصادية في العولمة من نفعية وربحية.. ويمكن للأدب أن يفيد من آفاق العولمة فيما يلي:

١ - الإفادة من معطيات الانفجار المعرفي والثورة التكنولوجية في تطوير الأشكال الأدبية مع تبني أساليب جديدة للخطاب الأدبي.

٢ - الإفادة من تعدد وسائل الاتصال ووسائط التوصيل والإعلام في نشر الإنتاج الثقافي والأدبي وذيوعه.

٣ - الوقوف بسهولة ويسر على أحدث التيارات الفكرية والأدبية والإصدارات الثقافية الهامة.

٤ - الإفادة من مخاطبة الآخر في تصحيح مفاهيمه المغلوطة عنا ومحاولة تنقية الصورة الشائهة في ذهنه وتأكيد هويتنا الأصيلة وإبراز جوانبها وإسهاماتها الإيجابية المتعددة لمسيرة الحضارة.

٥ - تأكيد صوت العالم الثالث من خلال إنجازات بعض رموزه ونجاحها في أن تحتل مواقع هامة ومسموعة لها وسط المشهد النقدي والفكري الآن، والتشجيع على تعدد مثل هذه الرموز المعبرة مثل: إدوارد سعيد، وإيهاب حسن، وإعجاز أحمد.

٦ - إفادة الثقافة والأدب من معطيات التبادل الثقافي والتناص الحضاري القائم، ومكتسبات حقول المعرفة المختلفة وإنجازاتها، وخاصة في مجالي الكمبيوتر وهندسة الوراثة فيما يوسع دائرة الخطاب الأدبي ويمده بدماء الحيوية والتواصل والحضور الفاعل مع الهموم والقضايا الإنسانية المطروحة حتى لا يتهم الأدب بأن دوره قاصر على أن يكون مجرد ردود أفعال.

تلك بعض الآفاق التي أراها مجالات إفادة وتطوير لمسيرة الأدب والمهام المنوطة به في عالم يطالعنا كل ساعة بالجديد والمدهش والغريب أحيانا.. إنه عالم القرن الحادي والعشرين.. عالم الألفية الثالثة.. المتغير. ■

الهوامش:

(١) «الجات والتبعية الثقافية، د. مصطفى عبد الغني، مكتبة الأسرة، ٩٩، ص٧٣، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.

(٢) المصدر السابق، انظر ملاحق هذا اللواحق، ص١٠١.

(٣) جريدة الأهرام المسائي، يوم ٤/٣/٢٠٠٠م، مقال رئيس التحرير.

(٤) الإسلام والعولمة، محمد إبراهيم مبروك وآخرون، الدار القومية العربية.

(٥) جريدة الأهرام، ملحق الجمعة، عدد ٣/٣/٢٠٠٠م.

(٦) ندوة حول العولمة، د. عبدالوهاب المسيري بمعرض الكتاب عن جريدة الشعب، عدد ١٨/٢/٢٠٠٠م.

(٧) آفاق العصر، د. جابر عصفور، ص١٤٤، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.